في الاجتماع اللغوي

صراع اللغـــات

للدكتور علي عبد الواحد وافي

مدرس العلوم الاجتماعية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

ذكرنا في مقال سابق[1] أن الصراع بين اللغات ينشأ عن عوامل كثيرة أهمها عاملان : أحدهما أن ينزح إلى البلد عناصر أجنبية تنطق بلغة غير لغة أهله ؛ وثانيهما أن يتجاور شعبان مختلفا اللغة ، فيتبادلا المنافع ، ويتاح لأفرادها فرص للاحتكاك المادي والثقافي . ثم تكلمنا عن الحالات التي يؤدي فيها العامل الأول إلى تغلب إحدى اللغتين على الأخرى وما يمتاز به هذا التغلب من خصائص وما يتصل به من شؤون

وسنعرض في هذه الكلمة للحالات التي يؤدي فيها العامل الثاني إلى مثل هذه النتيجة

* * *

يتيح تجاور شعبين مختلفي اللغة فرصاً كثيرة لاحتكاك لغتيهما فتشتبكان في صراع ينتهي أحياناً إلى تغلب واحدة منهما على الأخرى فتصبح لغة الشعبين ؛ ويحدث هذا في حالتين :

الحالة الأولى : إذا كانت نسبة النمو في أحد الشعبين كبيرة لدرجة يتكاثف فيها ساكنوه ، وتضيق مساحته بهم ذرعاً ، فيشتد ضغطه على حدود الشعب المجاور له ، وتكثر تبعاً لذلك عوامل الاحتكاك والتنازع بين اللغتين . وفي هذه الحالة تتغلب لغة الشعب الكثيف السكان على لغة المناطق المجاورة له ؛ على شريطة ألا يقل عن أهلها في حضارته وثقافته وآداب لغته . ويتأكد انتصاره إذا كان أرقى من أهلها في هذه الأمور

والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ. وأكثرها دلالة بهذا الصدد ما كان من أمر اللغة الألمانية ؛ فقد طغت على مساحة واسعة من المناطق المجاورة لألمانيا بأوربا الوسطى (بمويسر اوتشيكوسلوفاكيا وبولونيا والنمسا ... الخ) وقضت على لهجاتها الأولى[1]

الحالة الثانية : إذا تغلغل نفوذ أحد الشعبين في الشعب المجاور له ، وفي هذه الحالة تتغلب لغة الشعب القوي النفوذ ، على شريطة ألا يقل عن الآخر في حضارته وثقافته وآداب لغته ؛ ويتأكد انتصاره إذا كان أرقى منه في هذه الأمور

والأمثلة على ذلك كثيرة في مختلف مراحل التاريخ . فلغة شعوب « الباسك » Basque قد أخذت تنهزم أمام اللغة الفرنسية في المناطق التي تغلغل فيها نفوذ الفرنسيين ، وأمام اللغة الإسبانية في المناطق التي تغلغل فيها نفوذ الإسبانيين حتى كادت تنقرض في كلتيهما[2] . — واللهجات السلتية[3] التي كان يتكلم بها معظم السكان بإرلندا واسكتلندا وويلز قد أخذت تنهزم أمام اللغة الإنجليزية منذ أن تغلغل نفوذ انجلترا في هذه البلاد ، حتى زالت من لغة الأدب والكتابة ، وكادت تنقرض انقراضاً تاماً من لغة الحديث . وهكذا كان مصير اللهجة السلتية التي بقيت بمقاطعة البريتون Bretogne (في القسم الغربي من فرنسا على سواحل الأطلانطيق) ، فقد أخذت تنهزم أمام اللغة الفرنسية منذ أن تغلغل نفوذ فرنسا في هذه المقاطعة ، حتى لم يبق

(١) يرجع بعض مظاهر هذا التغلب إلى الغارات التي شنها الجرمان قديماً على هذه المناطق ، أي إلى أمور تتصل بالعامل الأول لا بهذا العامل . فالتمثيل هنا مقصور على الحالات التي تم فيها تغلب اللغة الألمانية في صورة سلمية تحت تأثير الجوار وتكاثف السكان

(٢) تقطن شعوب « الباسك » منطقة جبال البرانس الغربية في المدوتين الأسبانية والفرنسية بمناطق بيسكاي Biscaye وألافا Alava وجويبوزكوا Guipuzcoa ونافار Navarre (بأسبانيا) وبمناطق بيون Bayonne وموليون Mauléon بفرنسا — وتسمى لغتهم بالباسكية أو الأسكارا Euskara . وهي ليست من فصيلة اللغات الهندية الأوربية ، ولا من فصيلة اللغات السامية

ويدل الاحصاء الذي عمله الأستاذ لويس لوسيان بونابرت Louis Lucien Bonaparte عام ١٨٧٣ على أن عدد المتكلمين بهذه اللغة يبلغ نحو ٦٦٠ ألفاً في أسبانيا ونحو ١٤٠ ألفاً في فرنسا — ولكن ليس من شك في أن منطقة اللغة الباسكية ، وبخاصة منطقتها الأسبانية ، كانت قديماً أوسع كثيراً مما يرشد إليه هذا الاحصاء ؛ وقد ضاقت الآن عما كانت عليه عام ١٨٧٣ لتغلب اللغتين الفرنسية والأسبانية على كثير من أجزائها وخاصة في إقليم نافار Navarre

هذا ، وقد هاجر إلى أمريكا عقب كشفها بعض أسرات من الباسكيين فانتشرت لغتهم في المناطق التي حلوا بها ، ولا ينفك يتكلم بها الآن بضعة آلاف من أعقابهم ، وتصدر بها بعض صحفهم ومجلاتهم .

(٣) هي لهجات شعوب السلت Celtes ، التي كانت قديماً تقطن أوربا الوسطى ، ثم انتشرت عشائر منها بفرنسا وإسبانيا وبريطانيا . ولغاتها من الفصيلة الهندية — الأوربية

(١) عدد ٣٤٧ صفحة ٣٢٥ وتوابعها

لها إلا آثار ضئيلة فى لغة الحديث بين الأميين من الشيوخ[1]. — واللغة الفرنسية قد تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها ببلجيكا وسويسرا ؛ فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لجميع سكان والونيا Wallonie[2] ببلجيكا ولنحو ٢٢٪ من سكان سويسرا — واللغة الإيطالية قد تغلبت على لهجات المناطق المجاورة لها بسويسرا ، فأصبحت الآن لغة الحديث والكتابة لنحو ٣ر٥ ٪ من سكان هذه الجمهورية

وعلى هذا الأساس نفسه تتغلب فى المملكة الواحدة لغة المقاطعة التى تكون بها العاصمة أو يكون لأهلها السلطان والنفوذ؛ فلوقوع عاصمة بلجيكا (بروكسل) فى مقاطعة والونيا ذات اللسان الفرنسى ، ولأن سكان هذه المقاطعة يتمتعون بقسط كبير من النفوذ والسلطان فى هذه المملكة ، أخذت اللغة الفرنسية تتغلب على الفلامندية (لغة القسم الشمالى من بلجيكا المسمى « فلاندر ») وتنتقصها من أطرافها . ولوقوع عاصمة سويسرا (برن) فى القسم الناطق بالألمانية ، ولأن سكان هذا القسم يتمتعون بأكبر قسط من النفوذ والسلطان وتتألف منهم الأغلبية الساحقة (يتكلم الألمانية فى سويسرا نحو ٧٠٪ من أهلها) أخذت اللغة الألمانية تطغى على ألسنة الناطقين بالفرنسية من السويسريين . وقد أخذت لغة قريش قبيل الإسلام تتغلب على اللغات المضرية الأخرى ، لما كانت تتمتع به من سلطان أدبى ، ويستأثر به أهلها من نفوذ دينى وسياسى

وفى كلتا الحالتين السابقتين لا يتم النصر غالباً لإحدى اللغتين إلا بعد أمد طويل يبلغ أحياناً بضعة قرون ، فالصراع بين الألمانية والفرنسية بسويسرا قد بدأ منذ عهد سحيق ؛ ومع ذلك لم يتم بعد للألمانية النصر النهائى . والصراع بين اللغة الفرنسية واللسان السلتى الذى يتكلم به البريتونيون (سكان مقاطعة البريتون Bretogne) قد نشب منذ عدة قرون ؛ ومع ذلك لا يزال كثير من شيوخ البريتون فى العصر الحاضر يتكلمون بهذا اللسان . ولا تزال اللهجة السلتية لغة محادثة بين عامة الإرلنديين فى العصر الحاضر ، مع أن تغلب الإنجليزية عليها قد بدأ فى هذه البلاد منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى . وقد أخذت لغة قريش تطغى على اللغات المضرية الأخرى منذ العصر الجاهلى ؛ ومع ذلك ظلت هذه اللغات حية فى كثير من المواطن إلى أواخر العصر العباسى

وغنى عن البيان أن انتصاراً لا يتم إلا بعد أمد طويل لا يخرج المنتصر من معاركه على الحالة التى كان عليها من قبل . فاللغة التى يتم لها الغلب لا تخرج سليمة من هذا الصراع . بل إن طول احتكاكها باللغة الأخرى يجعلها تتأثر بها فى بعض مظاهرها وبخاصة فى مفرداتها كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى العامل الأول[1] . غير أن تجرد العامل الذى نحن بصدد الكلام عنه من عنف النزاع وشدة المقاومة ، وحدوث نتائجه فى صورة سلمية متدرجة بطيئة ، كل ذلك يعمل على وقاية اللغة الغالبة ، ويخفف من مبلغ تأثرها باللغة المغلوبة

والألفاظ الأصيلة للغة الغالبة ، ينالها بعض التحريف فى ألسنة المحدثين من الناطقين بها (المغلوبين لغوياً)، فتختلف بعض الاختلاف فى أصواتها ودلالاتها وأساليب نطقها عن صورتها الأولى .

والكلمات الدخيلة التى تقتبسها اللغة الغالبة من اللغة المغلوبة ينالها كذلك بعض التحريف فى حروفها ومعانيها وأساليب نطقها فتبعد فى جميع هذه النواحى عن شكلها القديم

* * *

وتقطع اللغة المغلوبة فى سبيل انقراضها نفس المراحل التى أشرنا إليها فى العامل الأول[2] فينفذ الانحلال أولاً إلى مفرداتها ثم إلى أصواتها ومخارج حروفها وأساليبها فى نطق الكلمات ويتم الإجهاز عليها بالقضاء على قواعدها .

على عبد الواحد وافى
ليسانسيه ودكتور فى الآداب من جامعة باريس

(١) ظلت هذه المقاطعة تتمتع بشىء من الاستقلال الذاتى حتى عام ١٤٩١ (فى عهد شارل الثامن) . ومن ذلك العهد اعتبرت تابعة للتاج الفرنسى . ولكن لم يتم ضمها إلى فرنسا إلا عام ١٥٣٢ فى عهد فرنسوا الأول — وقد انقرضت اللغة السلتية فى هذه المقاطعة انقراضا تاما من لغة الكتابة والأدب . وانقرضت كذلك من لغة الحديث بين أبناء الجيل الحاضر وكادت تنقرض من لغة الشيوخ أنفسهم — وقد زرت هذه المقاطعة وقضيت بضعة أشهر متنقلا فى بلادها ، فلم أسمع هذه اللغة إلا من عدد قليل من الشيوخ الأميين . وحتى هؤلاء أنفسهم لا يتكلمون لغتهم هذه إلا فيما بينهم؛ أما مع غيرهم فيتكلمون الفرنسية . ولكن ينال كلماتها وتراكيبها وأساليبها فى ألسنتهم كثير من التحريف

(٢) هو القسم الجنوبى من بلجيكا ، وينحدر سكانه من أصول سلتية ولاتينية . على حين أن القسم الشمالى المسمى بالفلاندر Flandre ينحدر سكانه من أصل جرمانى ويتكلمون الفلامندية وهى إحدى شعب اللغات الجرمانية الغربية

(١) عدد ٣٤٧ صفحتى ٣٢٦ ، ٣٢٧
(٢) عدد ٣٤٧ صفحة ٣٢٧